نظام الحكم فى الإسلام

لا خلاف فى أن القرآن الكريم لم يورد بيانًا عن نظام الحكومة التى يرتضيها أو يأمر بها الإسلام ، صحيح أن الآية الثامنة والثلاثين من سورة « الشورى » والآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة « آل عمران » قد تحدثتا عن الشورى ، وصحيح أن فى القرآن آيات تأمر بالعدل ، وتنهى عن الانحراف عنه ، لكراهية أو محبة . ولكن فيما عدا ذلك ، لا يجد الباحث من الأحكام ما يستطيع أن يقول معه إن الكتاب قد رسم خطًا ما للناس يلزمونه فى اختيار حكامهم ، أو أرسى قواعد لضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وإظهار ما يجوز لكل منهما وما لا يجوز . ومن ثم حق للفقهاء منذ نزل القرآن ، ويحق لنا اليوم أن نتساءل : فيم سكوت القرآن عن بيان مفصل لنظام الحكم ؟

جرت أكثر الأقوال فى الجواب عن هذا السؤال بأن مرد ذلك إلى كون الإسلام نظامًا صالحًا لكل زمان ومكان ، ونظام الحكم من أكثر الأنظمة الإنسانية تأثراً بالتطورات الطارئة التى تأتى بها الأيام ، والتى تثبت فى البيئة . فما يصلح للناس فى عهد قد يضيقون به فى عهد ثان ، وما قد ينفعهم فى بلد ، قد لا تستقيم به أمورهم فى بلد آخر .

وهذا القول صحيح ، وقد أخذت به الشريعة ، فمن قواعدها « تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان » ، وقد قال ابن خلدون فى مقدمته : إن أحوال العالم والأمم ، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . إنما هى اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال . .

وعلى الرغم من أن هذه الإجابة صحيحة فى جملتها ، فإن ما صرف القرآن عن بيان نظام الحكم هو أسلوب الإسلام وطريقته فى التشريع .

فأساس التشريع الإسلامى ، هو التربية الخلقية ، وإقامة رقابة الضمير الإنسانى ، بديلا من رقابة الدولة بشرطتها وعسسها . فالأصل فى الإسلام ، هو محاسبة الإنسان نفسه مستهديًا بأحكام الدين ، ومنها الحديث الذى يأمرنا أن نعبد الله كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه فهو يرانا . فرقابة الحكومة ، أو رقابة القانون هما رقابتان احتياطيتان .

ولذلك حرص الإسلام على أن ينشئ مجتمعًا تحكمه الضوابط الخلقية ، فإذا نجحت التربية الخلقية فخلقت مجتمعًا يسود علاقات أفراده الصدق والأمانة ، والوفاء والصراحة ، وكراهية الظلم ، ونصرة العدل ، والمسارعة إلى الخير ، ومقاومة الشر ، فأى نظام حكم يقوم فى هذا المجتمع ، يتساوى مع أى نظام آخر ، فمجتمع كهذا ، لن يقبل أو لن ينبعث منه نظام ظالم ، أو حكومة فاسدة ، أو حكام تعوزهم القدرة أو الكفاية .

وقد لخص الحديث النبوى هذه النظرة الإسلامية إلى الحكم إذ قال « كيفما تكونوا يول عليكم » ، فنظام الحكم أشبه شىء بالسائل ، يوضع فى الإناء الملون ، فيأخذ لونه ، ذلك لأن نظام الحكم — على ما أثبتته التجارب — هو صدى أخلاق الشعب ، أما الدساتير والقوانين ، فلا تقيم حكمًا ولا تغير من شئون الناس شيئًا .

لذلك احتفل الإسلام بأخلاقيات الحكم دون نظامه ، فعرض على الراعى وعلى الرعية فروضًا يعلم الإسلام أنها من الحكم جوهره ، وأنها إذا روعيت استقام شأن الرعية ، وصلح أمر الراعى ، فإذا أهملت وقفت النصوص ، ومعها البنادق والمدافع ، والمحاكم والسجون عاجزة لا تقدم خيراً ولا ترد شرًا .

وقد روى لنا تاريخ بريطانيا مثلا رائعًا ومردعًا فى الوقت نفسه ، ما أجدرنا أن نتعظ به .

لقد فشت فى لندن منذ قرون جريمة « النشل » حتى أصبحت

خطراً داهماً هدد أمن الناس وأموالهم ، فصدر قانون قضى بعقوبة الموت شنقاً ، على كل من يرتكب هذه الجريمة ، ونفذت عقوبة الشنق علناً ، زيادة فى الردع ، فتزاحم الناس فى الميدان الذى أقيمت فيه المشنقة ، فانتهز النشالون الذين لم يضع القانون يده عليهم ، فأعملوا أصابعهم الخفيفة ، ومشارطهم السريعة فى جيوب المشاهدين ، فنشلوا فى ساعة ، ما كانوا يعجزون عن نشله فى أيام .

وليس فى الوسع أن نسرد نصوص الدستور الأخلاقى الذى فرضه الإسلام على الراعى ، ولكن نستطيع أن نذكر بعضها على سبيل المثال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » ، وقال : « من ولى من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة ، احتجب الله عنه يوم القيامة » .

وأمر الإسلام الولاة أن يحسنوا اختيار أعوانهم ، فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى الله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . ومن جهة أخرى فرض الإسلام على أفراد الرعية ألا يعينوا على الظلم فقد قال الرسول الكريم : « من أعان ظالماً بباطل ليدحض به حقاً ، فقد برئ من ذمة الله ورسوله» ، وفرض عليهم أن ينصحوا للحاكم ، وأن يجهروا بالرأى فى شئونهم ، فجعل خير الجهاد كلمة حق عند حاكم ظالم .

ولقد تسأل : ومن سيقوم بتربية الشعب ، ليكون له هذا الخلق القوى ، ثم ليسهر عليه ينميه ، ويمنع عوادى الزمن عليه ؟ والجواب عن هذا أن الله فرض على جماعة المسلمين أن يكون منهم دائماً طائفة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فإذا نسيت الجماعة ذكروها ، وإذا صلحت أعانوها ، وإذا خافت قووا إيمانها ، وإذا اندفعت سددوا خطاها ، سدد الله خطانا .